الفصل الثاني

سيدنا محمد رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام

مقدمة موجزة عن حياته الكريمة :

في ١١ ربيع الأول (٢٩ أغسطس ٥٧٠م) ، أشرق العالم بنور مولود اسمه «محمد» لسيد من سادة قريش هو : عبد الله بن عبد المطلب ، ولسيدة كريمة هي : آمنة بنت وهب من قبيلة بني النجار بالمدينة .

وعبد الله والد الرسول عليه الصلاة والسلام هو ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، كبير سادة قريش وسادن الكعبة المقدسة ، وقبيلة قريش هي أشرف القبائل العربية في الحجاز ، وكان سادة قريش حكام مكة وما جاورها يحترفون التجارة ولهذا كانوا يجوبون أنحاء الجزيرة العربية للبيع والشراء .

وفي إحدى رحلاته التجارية توفي عبد الله والد الرسول وله من العمر خمسة وعشرون عامًا ، وبعد وفاته بأيام قلائل ، ولد محمد عليه الصلاة والسلام ، وبعد ولادته سُلِّم إلى مرضعة بدوية هي السيدة حليمة السعدية ليعيش مع قبيلتها بني سعد في قلب الصحراء ، كما تقضي به وقتئذٍ العادة العربية لأولاد الأشراف وذلك ليشبوا على الشجاعة والفروسية والصبر على شظف الحياة ، وفي سن السادسة أعيد محمد إلى أمه التي أشرفت بنفسها على رعايته وتربيته ، وبعد أشهر قليلة من وصوله ماتت أمه وتركته يتيم الأبوين ، فتولى رعايته جده عبد المطلب .

وفي سن الثامنة ابتلي محمد بوفاة جده أيضًا ، فقام على العناية به عمه أبو طالب .

وقضى أيام شبابه في بيت عمه ساهرًا على شؤونه ورعاية ماشيته .

وكان محمد في أيام شبابه حريصًا على حضور الندوات الأدبية والأسواق التجارية التي كانت تعقد في مكة وما حولها .

ولقد استرعى انتباهه المرهف الفساد والفجور المتفشيان في هذه الأسواق ، وموائد الخمر والميسر التي كان يختلف إليها أشراف القبائل طوال الليل مما كان يؤدي غالبًا إلى مشاجرات ووقائع دموية .

كل ذلك كان له أثر بالغ في ذهن الشاب اليتيم .

وكثيرًا ما كان يصطحبه عمه في رحلاته التجارية خارج الحجاز .

وقد رأى بدقة ملاحظته وبحسه المرهف أثناء هذه الرحلات الظلم والفساد اللذين تتردى فيهما الإنسانية ، وأفاد بذكائه وقوة ملاحظته من هذه الرحلات اتساعًا في الأفق وتجارب قيمة .

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، خرج إلى الشام في قافلة تجارية للسيدة خديجة بنت خويلد من أشراف قريش الأثرياء التي عهدت إليه بهذه القافلة لما توسمت فيه بالرغم من صغر سنه من أمانة وذكاء وكفاية ، وكان حسن تصريفه لشؤون هذه القافلة ، وما درت من أرباح طائلة على السيدة خديجة عاملًا من العوامل أدى إلى زواجه منها .

ولو أنها تكبره بكثير إلا أن زواجهما كان مثال السعادة والهناء ، أحبته يوم اضطهده الناس ، وصدقت برسالته قبل أن يصدق غيرها من الرجال والنساء ، وأحاطته بعطفها وحبها في وقت من أحرج أوقات حياته ، عندما نزل عليه الوحي وكلف الرسالة ، وقد أنجبت له ولدين وأربع بنات مات الولدان في سن الطفولة ، وعاش البنات الأربع ومنهن من عشن بعد وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

وكانت السنون الخمس عشرة الأولى من زواجه بالسيدة خديجة سني تحضير واستعداد للرسالة الكبرى ، قضاها الرسول في التفكير في ملكوت الله وخلقه وفي العبادة والاتصال بخالقه .

وكان يقضي وقتًا غير قصير في غار حراء بجوار مكة يتعبد أيامًا طويلة ، وكان يرسل إليه في الغار القليل من الزاد الذي يقوم بأوده .

وفي ذات ليلة وهو في غار حراء وكل شيء هادئ ساكن تحت جنح الليل ، إذ بصوت من السماء يناديه قائلًا :

«اقرأ» ، فقال الرسول : «**ما أنا بقارئ**» .

فرد الصوت مجلجلًا : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ، فارتعدت فرائصه ، وعاد مسرعًا إلى داره بمكة إلى زوجه الحنون خديجة التي هدأت من روعه وقالت له :

«إن الله لن يكلك إلى نفسك وستحمل الأمانة وتبلغ الرسالة» .

وكانت السيدة خديجة أول من اعتنق الإسلام ثم زيد بن حارثة وبعدهما أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فاتح بلاد الفرس ، وتبعهم آخرون .

وقد ذاق المسلمون الأوائل y ألوانًا من القهر والعنف والاضطهاد من كبار قريش ، وأمضى الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين طويلة مرهقة يدعو للإسلام بين قومه الذين أمعنوا في الرذيلة والكفر وعبادة الأصنام .

زاد الاضطهاد عنفًا على مر الأيام فمُنع الرسول وأصحابه من العبادة في الكعبة ، وتتبعوه هو وأصحابه في كل مكان ، يقذفونهم بالحجارة والأوساخ أثناء تعبدهم ، وأغروا بهم الصبية وسفلة القوم لإيذائهم والتنكيل بهم .

ولما لم تُجد هذه الألوان من الاضطهاد ، تفننت قريش في ضروب أخرى من العذاب منها : إلقاء المسلمين في غياهب السجون وضربهم وتعريضهم لحرارة الشمس القاسية في الصيف ، أما الرسول عليه الصلاة والسلام وبعض من آمن معه من سادة قريش فلم تصل إليهم أيدي المضطهدين بعد .

ولما أحس الرسول عليه الصلاة والسلام بما يعانيه أصحابه من عسف واضطهاد وتعذيب نصحهم بالهجرة إلى الحبشة ، أما هو ونفر من صحبه فبقوا في مواقفهم صامدين ثابتين ثبات الطود الشامخ ، هاجر خمسة عشر مسلمًا إلى الحبشة ، اتباعًا لهذه النصيحة فأكرم النجاشي وفادتهم وأحسن استقبالهم .

وفي السنة السادسة من الرسالة أسلم سيدنا حمزة وسيدنا عمر بن الخطاب ☐ وكان أعز فتيان قريش وأشدهم شكيمة .

ولما لم يفد التهديد والوعيد في التأثير على النبي عليه الصلاة والسلام جنحت قريش إلى الوعد والإغراء فقالوا له : إن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نُسوِّدُك علينا ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًا «جنيًا» قد غلب علي ، بذلنا أموالنا في الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فقال عليه الصلاة والسلام :

«ما بي ما تقولون ، ولكن الله بعثني رسولًا ، وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم

به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» .

لجأت قريش بعد ذلك إلى عم الرسول أبي طالب ، وطلبت إليه أن يأمر ابن أخيه بالكف عن تسفيه آلهتهم والحط منهم ، وتَرْك الدعوة التي يقوم بها ، وإلا فعليه أن يتبرأ منه ويكف عن حمايته .

فأبلغ أبو طالب ما قالته قريش للرسول عليه الصلاة والسلام الذي رد عليه قائلًا : **«والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لأقف عن تبليغ الرسالة فلن أفعل حتى يُظهِرَ الله دينه أو أهلك دونه»** .

ولما غادر الرسول عليه الصلاة والسلام مجلس عمه ، دعاه إليه وقال له : «يا ابن أخي ، قل ما تشاء وبلغ رسالتك فإن الله لن يخذلك» .

وفي السنة السابعة من الرسالة أجمعت قريش على مقاطعة الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه بنو هاشم وبنو المطلب على أن لاَ يَنْكحوا منهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوا لهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا هذا العهد وعلقوه في الكعبة .

انحاز بنو هاشم وعبد المطلب إلى أبي طالب وخرجوا جميعًا إلا أبا لهب مع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الشعب ، وهو وادٍ قريب من مكة ، أقاموا به سنتين أصابهم فيهما الجهد والعناء ، وكان لا يصل إليهم الماء والزاد إلا سرًّا .

ولما لم يجد قريشًا ذلك شيئًا ورأوا أن الرسول وصحبه ثابتون ثبات الطود عدلوا عن مقاطعتهم ، وعاد الرسول ومعه بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى دورهم في مكة ، على أن سرورهم بعودتهم قد شابه موت السيدة خديجة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، فحزن عليها الرسول ﷺ حزنًا شديدًا ، فقد كانت له خير العون والشريك ، وكانت مدة عشرتها لرسول الله خمسة وعشرين عامًا وسمي عام وفاتها عام الحزن .

على أن سماح قريش بعودة الرسول وصحبه إلى مكة لم يثنهم عن الاستمرار في اضطهادهم وتعذيبهم ، وقد رأى الرسول أن يتجه بدعوته إلى الطائف على بعد نيف وسبعين ميلًا من مكة ، فأقام بها وقتًا يدعو قبيلة ثقيف التي تقطن هذه المنطقة إلى

الله تعالى فلم يجيبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اختضبت قدماه بالدماء .

وكان إذا اشتدت عليه الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه من عضديه ، فإذا مشي رجموه وهم يضحكون ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج رأسه .

ترك رسول الله عليه الصلاة والسلام الطائف وهو على هذه الحال ومر في طريقه ببستان ، جلس يستظل بأشجاره ، ورفع كفه إلى السماء قائلًا :

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنا ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» (١) .

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مكة ، وتابع الدعوة لرسالته ، فكان يخرج في المواسم والأسواق لبث دعوته ولقي رهطًا من الخزرج من سكان المدينة فقال لهم : **«ألا تجلسون أكلمكم؟»** ، قالوا : «بلى» ، فدعاهم وعرض عليهم الإسلام ، فآمن منهم ستة ، فلما كان العام المقبل لقيه اثنا عشر رجلًا من المدينة فأسلموا جميعًا وطلبوا أن يبعث إليهم من يقرأ لهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأرسل إليهم مصعب بن عمير وأسلم على يديه من أهل المدينة خلق كثير .

وفي السنة التي تليها حضر سبعون من مسلمي المدينة لدعوة الرسول لكي يهاجر إليها ، فحذرهم من نتائج هجرته إليهم وما قد يلحق بهم من أذى قريش بسببه ، فقالوا : نعم نعلم ذلك ، ولكننا نريد أن تؤكد لنا أنك إذا حضرت إلينا فلن تعود إلى الإقامة بمكة ، قال الرسول عليه الصلاة والسلام ما معناه : كلا فدمكم دمي وأنا لكم وأنتم لي ، ولما تمت هذه البيعة ، أمر الرسول عليه الصلاة والسلام من كانوا معه بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا جماعات ، تاركين أهلهم ودورهم وأموالهم ، وبقي بمكة حتى يأذن الله له بالهجرة .

---

(١) أورده ابن إسحاق في السيرة والطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن جعفر وهو مرسل صحابي .

اجتمعت قريش في دار ندوتهم ، يتشاورون فيما يصنعون بمحمد ، فاستقر رأيهم على قتله ، واختاروا شرذمة من شباب مختلف القبائل لتنفيذ هذه الجريمة ، حتى يكون دمه موزعًا على كل القبائل ولا يقدر بنو هاشم وبنو المطلب على الثأر له .

رابط القوم حول دار الرسول عليه الصلاة والسلام لتنفيذ جريمتهم ، ولكن الله تعالى أعلمه بما يبيتون .

فأمر عليًا بن أبي طالب أن ينام مكانه وأوصاه أن يؤخر هجرته ، حتى يؤدي الودائع التي كانت للناس عند النبي عليه الصلاة والسلام .

ثم خرج من داره وقد أعمى الله بصائر القوم فلم يروه ، وأتى دار أبي بكر مستخفيًا ، واصطحبه إلى غار ثور وهو جبل بأسفل مكة وبقي فيه ثلاثة أيام ، وفي طريقه إلى الغار ، ألقى النبي عليه الصلاة والسلام نظرة أخيرة إلى مكة وإلى البيت الحرام وقال : والله إنك لأحب أرض الله إليَّ ، وإنك أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت .

ولما فقد الكفار رسول الله ﷺ طلبوه بمكة ، أعلاها وأسفلها ، وبعثوا يقتفون أثره خارجها ، حتى وصلوا إلى غار ثور ورأوا أن العنكبوت قد نسج على مدخله وهمس أبو بكر في أذن الرسول قائلًا : «والله إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا» ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : «**ما ظنك أبا بكر باثنين الله ثالثهما!**» .

وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠] .

بعد أن أمن الرسول وصاحبه شر من اقتفوا أثره ، خرجا معًا ميممين شطر المدينة ، ودخلاها بعد ثمانية أيام ، وكان يومًا حارًا من أيام الصيف (يونيو سنة ٦٢٥م) ، عندما ترجل الرسول عليه الصلاة والسلام عن راحلته لأول مرة على الأرض التي شاء الله أن تكون قاعدة لإمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف .

وبعد وصوله إلى المدينة بدأ ببناء مسجده ، فبُني باللبن وسقف بالجريد وجُعلت عُمُدَه من جذوع النخل ، وعمل فيه المسلمون وكان النبي عليه الصلاة والسلام ينقل اللبن معهم .

ثم نظر في شؤون المهاجرين الذين تركوا أموالهم وضياعهم ودورهم بمكة فارين بدينهم من الأذى واضطهاد الكفار ، وأقام وحدة بينهم وبين الأنصار سكان المدينة ، فأصبح كل مهاجر أخًا لأنصاري : يقطن داره ويشاركه في ماله ، ولكن المهاجرين ما لبثوا أن اعتمدوا على أنفسهم وأغلبهم من التجار فأصبحوا بعد قليل في ثراء وبحبوحة من العيش .

واجه الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك مصاعب جمة بسبب الخلافات الناشئة بالمدينة وما حولها من معتنقي الأديان المختلفة المسلمين والمسيحيين ، واليهود ، فوضع ميثاقًا ينظم علاقات هذه الطوائف مع بعضها ، ويقرر حقوقها وواجباتها ، ويعيد السلام إلى نصابه .

ويقوم هذا الميثاق على أسس أربعة :

١ـ يعيش أهل المدينة على اختلاف أديانهم أمة واحدة .

٢ـ تتمتع كل طائفة بحرية العبادة طبقًا لطقوسها وعاداتها .

٣ـ في حالة الحرب تؤازر كل طائفة الأخرى لصد العدوان .

٤ـ لا يعقد صلح مع عدو إلا بعد التشاور .

على أن اليهود بقبائلهم الثلاث : «بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة» ، لم يرعوا هذا العهد ، بل سرعان ما نقضوه .

بنو قينقاع :

فلقد حدث أن قَدِمَتْ امرأة من العرب إلى سوق اليهود ومعها حلية جاءت بها إلى صائغ من بني قينقاع ، فحاول هو ومن معه كشف وجهها ، وهي تأبى عليهم ذلك ، فجاء يهودي من هذه القبيلة وأثبت طرف ثوبها بشوكة في ظهرها ، فلما استوت واقفة انكشفت سوءتها .

فأغرقوا في الضحك ، فصاحت المرأة مستنجدة ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله .

فتأزم الموقف بين المسلمين وبني قينقاع وطلب النبي عليه الصلاة والسلام من بني قينقاع الكف عن أذىٰ المسلمين فاستخفوا بقوله واستمروا في إيقاع الضرر بالمسلمين وإيذائهم .

فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بهم ، فحوصروا في منازلهم ، فاضطروا إلىٰ ترك دورهم وسلاحهم وأموالهم متجهين إلىٰ الشمال صوب الشام .

بنو النضير :

ثبت أن يهوديًّا من بني النضير قتل اثنين ممن أجارهم رسول الله ، فذهب الرسول إليهم ومعه بعض كبار المسلمين مطالبًا بدية القتيلين .

وبينما هم يتفاوضون ، شعر الرسول أن هناك حركة غير عادية في المنزل الذي كان مستندًا إلىٰ جداره فترك الجدار وقفل راجعًا إلىٰ المدينة .

وظهر أن اليهود كانوا يحركون حجرًا ضخمًا فوق الجدار ، ليسقطوه علىٰ الرسول ؛ فما كان من الرسول عليه الصلاة والسلام إلا أن أمر بحصار بني النضير ، وقاتلهم المسلمون عشرين ليلة .

ولما يئس بنو النضير من نجدة حلفائهم من قبائل العرب ، سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤمنهم علىٰ أموالهم ودمائهم وذراريهم حتىٰ يخرجوا من المدينة ، فصالحهم الرسول علىٰ ذلك .

وخرج بعضهم إلىٰ خيبر ، واتجه البعض الآخر شمالًا إلىٰ الشام ، تاركين وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة .

بنو قريظة :

لما هزم الكفار وحلفاؤهم في وقعة الأحزاب «الخندق» كان لبني قريظة يد كبرىٰ في معونة الكفار في هذه الحرب ، مخالفين بذلك العهد الذي كان بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام : لهذا أمر الرسول بغزوهم .

وكانوا يقيمون في حصون منيعة ، فحوصروا ودام حصارهم خمسة وعشرين يومًا ، ودارت المفاوضات بينهم وبين المسلمين ، فعرض الرسول علىٰ بني قريظة أن يختاروا حكمًا ، فاختاروا رجلًا من قبيلة الأوس وهو سعد بن معاذ فقبل سعد أن يحكم في الأمر علىٰ شريطة أن يقبل الفريقان قضاءه ، فلما أعطوه المواثيق ، أمر بني قريظة أن

يلقوا السلاح وحكم بأن يقتل القادرون على القتال من الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرية والنساء ، ثم أمر بحفر خندق وجيء باليهود فضربت أعناقهم تنفيذًا لهذا الحكم ، ودفنت جثثهم فيه .

على أن بعض بني قريظة لم يكونوا ليتوقعوا مثل هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم ، ولكن ثبوت غدرهم وانكشاف سوء طويتهم ، كل ذلك قد أملى عليه أن يحكم بما حكم ، هكذا كانت نهاية قبائل اليهود الثلاث بسبب مكرهم بالمسلمين ونقضهم العهود ، فنزل بهم العقاب جزاءً وفاقًا .

أذن الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بالقتال ، دفاعًا عن الإسلام وذودًا عن أراضيه فقال الله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩] (١) .

وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] .

ولهذا كانت حروبه عليه الصلاة والسلام وغزواته كلها حرب دفاع .

وبينما كان أهل المدينة يعيشون في سلام ووئام ، كان أهل مكة يعدون العدة لغزوهم والاعتداء عليهم ، وفي السنة الثانية من الهجرة جمعت قريش جموعها وساروا إلى المدينة ، فخرج للقائهم في بدر ثلاثمائة مقاتل من المسلمين لا عدة لهم إلا الإيمان بالله والعزم على الاستشهاد في سبيله وفي سبيل دينه الحنيف ، نازلوا قريشًا وهم ثلاثة أمثالهم عددًا وأكثر منهم عدة فأظهرهم الله عليهم ، وأنزلوا بهم هزيمة نكراء ، ارتدوا بعدها مدحورين إلى مكة ، وقتل منهم خلق كثير .

وفي السنة الثالثة من الهجرة (٦٢٥ ميلادية) عادت قريش إلى المدينة مبيتة النية على الثأر لنفسها من هزيمة بدر ، وبعد أن جمعوا جموعهم وأعدوا عدتهم ساروا في جيش لجب قوامه ثلاثة آلاف مقاتل .

فخرج الرسول ورفاقه للقائهم ، وجعلوا جبل أُحُد خلفهم ، ليحمي مؤخرتهم ، وأقام على حراسته خمسين رجلًا وقال لهم مشددًا : «**لا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، واحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل لا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**» .

---

(١) أي أذن الله بالقتال للذين يقاتلون ظلماً .

ودار القتال فقتل من المشركين عدد غير قليل ، وأنزل الله نصره على المسلمين ، وولى الكفار لا يلوون على شيء .

فلما رأى حماة المؤخرة بأحد ما أحرزه المسلمون من نصر وغنائم ، خالفوا أمر الرسول وتركوا موقعهم ليسهموا في الغنائم .

فنفذ الكفار إلى مؤخرة المسلمين وأحاطوا بهم فدب الفزع في نفوسهم ، وقتل عدد كبير منهم وتفرق البعض ، وعاد الكفار مكة أدراجهم لم يدخلوا المدينة ، ولم يحققوا أمنيتهم من سحق المسلمين .

ولذلك أعادوا الكرة في هجوم ثالث على المسلمين في المدينة ففي السنة الخامسة من الهجرة (٦٢٧ ميلادية) تحرك جيش الكفار من مكة للهجوم على المدينة ، وكان المسلمون قد وصل إليهم النبأ فحفروا خندقًا حول المدينة استعدادًا للقاء العدو وكان هذا أول عهد الجزيرة العربية بهذه الاستراتيجية الحربية كوسيلة لخطة حربية وصل الأعداء في جيش لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل من كفار قريش وممن ائتلف معهم من اليهود وقبائل غطفان ، وحاصروا المدينة ودام حصارهم لها شهرًا وحاولوا أكثر من مرة اختراق الخندق ، فردهم المسلمون بخسائر فادحة ، رغم ما كانوا يعانونه من مشقة وجوع ، وأخيرًا بدا على جيش الكفار الملل واليأس من طول الحصار ، وزاد من يأسهم ريح عاتية هبت عليهم اقتلعت خيامهم وأكفأت قدورهم وعادوا خاسرين لا يلوون على شيء .

وفي السنة السادسة من الهجرة ، عزم الرسول ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين على أداء العمرة ، ولما وصلوا مشارف مكة اعترض سبيلهم سبعون رجلًا من الكفار ليصدوهم عن دخول مكة ، فتغلب المسلمون عليهم وأسروهم ، ولكن الرسول أمر بإطلاق سراحهم لأنه وأصحابه في رحلة دينية لا حربية ، ولذلك لم يحملوا إلا سلاح المسافر .

ثم تبادل الرسول عليه الصلاة والسلام وسكان مكة الرسل ، وأخيرًا وبعد مفاوضات طويلة اتفق معهم على أن تقوم هدنة وسلام بين الطرفين وحلفائهما لعشر سنين ، وأن يرجع المسلمون إلى المدينة على أن يعودوا لقضاء العمرة في العام التالي ، وألا يأتي المسلمين رجل من مكة حتى ولو كان مسلمًا إلا ردوه إليهم ، وإذا وفد إليهم

رجل من المدينة لا يردونه إليهم حتى وإن كان مسلمًا ، وسمي هذا الصلح صلح الحديبية .

قبل المسلمون صلح الحديبية ولو أن في ظاهرة غُبنًا فادحًا عليهم إلا أن هذا الصلح كان فتحًا مبينًا للمسلمين ضمن لهم شيئًا من الهدوء والسلام ، وأتاح لهم العودة في السنة المقبلة لقضاء العمرة .

على أن هذه الهدنة لم تدم طويلًا ، فقد نقضها كفار مكة باعتدائهم على بني خزاعة حلفاء المسلمين الذين شكوا للرسول ما حل بهم على يد الكفار ، فخير الرسول الكفار بين دفع الدية لبني خزاعة والتنصل من المعتدين أو فسخ الهدنة ، ففضل الكفار فسخ الهدنة لعلهم يشفون غليلهم بالقضاء على المسلمين .

وفي السنة الثامنة من الهجرة (٦٣٠ ميلادية) جهز الرسول دفاعًا عن حلفائه بني خزاعة جيشًا قوامه عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة ، وكان لكل قبيلة من قبائل المسلمين كتيبة فيه .

ولما وصل المسلمون مشارف مكة ، وزع الرسول عليه الصلاة والسلام الكتائب على مختلف المواقع ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، وقد تم دخول مكة بسلام باستثناء مناوشة بسيطة بين كتيبة خالد بن الوليد اعتدى عليها بعض كفار مكة .

دخل الرسول عليه الصلاة والسلام مكة دون قتال يذكر : مكة القريبة إلى قلبه رغم أنها أخرجته وأذاقته وأصحابه ألوانًا من الاضطهاد والتعذيب ، وقد أصبحت الآن تحت رحمته يلقن أهلها درسًا بليغًا في الإسلام وما يحمله من رحمة وتعاطف ، دخل الرسول البيت الحرام وخطب الناس ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس : إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك دمًا أو يعضد[1] بها شجرة ، فليبلغ الشاهد الغائب» .

ثم قال : **«يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟»** . قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»** .

---

(١) يعضد : يقطع .

ثم اتجه إلى الأصنام يهدمها بمحجنه [١] ويقول :

﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] .

ثم ذهب إلى ربوة الصفا بجوار البيت الحرام ، ووافاه الناس أفواجًا ليدخلوا في دين الله ، فتحقق بذلك قوله تعالى :

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣] .

وبعد فتح مكة ، خشي الأنصار المرافقون للرسول عليه الصلاة والسلام أن يحن إلى مسقط رأسه ويبقى به ، وأشعروه بذلك فقال لهم :

«معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم» .

ولقد كان فتح مكة حدثًا هامًا في الإسلام ، فيه الخير كله للمسلمين ودينهم الحنيف ، فما عاد الرسول إلى المدينة حتى أخذت وفود العرب تترى يعلنون إسلامهم وولاءهم لرسول الله ، ولذلك يسمى هذا العام التاسع من الهجرة (٦٣٠ ميلادية) عام الوفود .

ومن هذا العام بدأت الجزيرة العربية كلها تحيا حياة عز وخلق وكرامة بفضل اعتناقهم الإسلام ونبذهم عبادة الأصنام .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يغدق المنح على هذه الوفود ويبعث مع كل وفد معلمًا يفقههم في القرآن والدين .

وكان يوصيهم بالرفق والهوادة وربما يدخل البشر والمسرة في نفوسهم وكان يقول لهم : **«إذا سألكم أهل الكتاب عن طريق النجاة والسعادة في هذه الحياة ، فقولوا : إنه الإيمان والعمل الصالح»** .

وفي السنة الحادية عشرة من الهجرة ، أقبل موسم الحج واعتزم الرسول عليه الصلاة والسلام أداء الفريضة شكرًا لله ﷻ على ما واتاه من توفيق ونصر مؤزر وشعورًا منه بدنو أجله ، وكان هذا الحج آخر عهده بالبيت الحرام والبقاع المقدسة .

وفي يوم الحج الأكبر ، خطب الرسول للناس فقال : **«أيها الناس ، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا . أيها الناس ، إن دماؤكم**

---

(١) محجنه : عصاه .

وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا قد بلغت . من كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . أيها الناس ، إن لكم على نساءكم حقًا ، ولهن عليكم حقًا «لكم عليهن ألا يوطئن فُرشكم أحدًا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

«اعقلوا أيها الناس قولي ، لقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، أمرًا بينًا : كتاب الله وسنة رسوله» .

يا أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمُن أنفسكم ، ألا هل بلغت ؟

أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، وكلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت .

فأجاب الجميع بصوت واحد : «نعم» ، فقال : «اللهم فاشهد» .

وبعد أن أتم الرسول عليه الصلاة والسلام خطابه وصلى الظهر والعصر ، ركب ناقته حتى بلغ الصخرات ، وهناك تلا على الناس قول الله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣] .

فلما سمعها أبو بكر بكى لأنه وجد فيها إشعارًا بدنو أجله عليه الصلاة والسلام .

عاد الرسول وصحبه إلى المدينة ، وقد أمن جانب الجزيرة العربية ، بعد دخول أهلها في دين الله أفواجًا ، وكان دائم التفكير في أمر الفرس والروم وما يهدد الإسلام من خطرهم .

وفي السنين العشر التي قضاها الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة ، وضع أسس الحكم في الدولة الإسلامية وشرَّع للمسلمين في شؤون دينهم ومعاملاتهم ، كما أنه اضطر في هذه الفترة لخوض ستة حروب دفاعية كبيرة أرغمه الكفار على خوضها دفاعًا عن الإسلام ، فيا له من مجهود ضخم لا يقدر على أدائه إلا مُلهم تُوجهه القدرة الإلهية .

أمضى الرسول عليه الصلاة والسلام نحو سنة في المدينة بعد حجة الوداع ، وقد أخذت صحته في الاعتلال خلال هذا العام ، ولكنه كان يؤمن المسلمين في الصلاة ويُصرف شؤونهم ويُشرع لهم ، ولكن صحته كانت في ضعف مستمر حتى اضطر في آخر أيامه إلى الاعتكاف بداره وإنابة أبي بكر ﷺ ليؤم المسلمين في الصلاة .

وفي يوم الاثنين ١١ ربيع الأول (٨ يونية سنة ٦٣٢ ميلادية) ، بينما كان الرسول على فراش مرضه يدعو الله همسًا ، صعدت روحه الكريمة إلى الرفيق الأعلى بعد أن قضى حياته لله وفي سبيل الله وسبيل رسالته السماوية .

ووري جسمه الشريف التراب !

ولكن الشعلة المقدسة التي كان يحملها لا زالت تضيء العالم ، والدين الذي بعثه الله به منذ نيف وأربعة عشر قرنًا يزداد انتشارًا ورسوخًا ، ويزداد العالم كل يوم اقتناعًا بأنه دين السلام والرحمة والسعادة .

١ـ رسالته عليه الصلاة والسلام

النصوص القرآنية :

أرسله الله تعالى بالحق شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، ورحمة للعالمين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥، ٤٦] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء:١٧٠] .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴾ [ص:٦٥ـ٦٨] (١) .

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ [المزمل:١٥] .

أنزل عليه القرآن الكريم هدىً للناس ليحكم به يزكينا ويعلمنا الحكمة :

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٥] .

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩] .

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ [النساء:١٠٥] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى:٥٢] .

ويأمره الله تعالى بتبليغ رسالته والدعوة إليها ، بادئًا بعشيرته وأهله :

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] .

---

(١) نبأ عظيم : الرسالة السامية التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام .

ويدعوه الله تعالى إلى الجد في نشر الرسالة والدعوة لها بالحكمة والحسنة :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥] .

﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٦٧] .

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] (١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر:١-٥] (٢) .

٢ـ آيات الإرشاد والتوجيه

ولقد واجه الرسول عليه الصلاة والسلام هو ومن معه ألوانًا من الاضطهاد والمكر والخداع ، والعداوة من الكفار وأهل الكتاب والمنافقين ، فأنزل الله تعالى عليه من آيات الإرشاد والتأديب والتوجيه ما يثبت به فؤاده ويقوي إيمانه فيأمره الله تعالى بالصبر والتوكل عليه :

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩] .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل:٧٩-٨١] .

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٧، ١٢٨] .

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور:٤٨، ٤٩] (٣) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة:١٢٩] .

---

(١) على بصيرة : على طريقة مبصرة واضحة .

(٢) والرجز فاهجر : اترك الرذائل أو الفواحش التي تؤدي إلى غضبه وعذابه .

(٣) بأعيننا : في رعايتنا .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:١-٣] .

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

ويأمره سبحانه وتعالى ألا يمد عينيه إلى متاع الدنيا الزائل ، فقد حل به ضيق فلم يجد ما يطعمه فأرسل إلى تاجر يهودي ليبيعه بأجل شيئًا من الدقيق ، فأبى البيع إلا برهان ، فقال ﷺ : «**والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ، ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه ، اذهب بدرعي هذا رهنًا لما تشتريه منه**» ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١] (١) .

ويأمره الله تعالى أن يخفض جناحه للمسلمين ويستشيرهم في أموره :

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] .

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

[آل عمران:١٥٩] .

كما يأمره الله تعالى ألا ينقطع عن الجلوس مع فقراء المسلمين والتحدث إليهم خشية انفضاض كبار قريش وأغنيائهم عنه ، فقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجلس مع فقراء المسلمين وكانوا يلبسون جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها ، فقال له كبار قريش : لو نحيت هؤلاء «بلالًا وعمارًا وخبابًا وغيرهم من الفقراء y» ، عن مجلسك لجلسنا معك وأخذنا عنك .

فأنزل الله تعالى :

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] (٢) .

---

(١) أزواجًا منهم : أصنافًا من الفكرة .

(٢) بالغداة : من أذان الصبح إلى طلوع الشمس ، العشي : من الظهر إلى غروب الشمس ، لا تعدو عيناك عنهم : لا تتجاوزهم عيناك ، وكان أمره فرطًا : من تجاوز للحق .

فذهب عليه الصلاة والسلام إلى فقراء المسلمين وقرأ عليهم هذه الآية الكريمة وقال : «**الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات**» (١) .

ويعاتبه الله تعالى لما أعرض عن ابن أم مكتوم الأعمى والرسول عليه الصلاة والسلام جالس مع بعض عظماء قريش يدعوهم إلى الإسلام فنزلت الآيات الكريمة :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [عبس:١-١٢] .

ومن رحمة الله تعالى وحبه لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام أن أنزل الله سبحانه وتعالى من الآيات ما يعزيه ويشفي صدره ويخفف وقع إعراض الكفار عن رسالته ومكر المنافقين به ، فيقول سبحانه وتعالى :﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٢٠] .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٦]

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

[الحجر:٩٤-٩٩]

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم:٥٢-٥٣] .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨] (٢) .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾

[الشورى:٤٨]

---

(١) سلمان .

(٢) لا تذهب نفسك عليهم حسرات : لا تهلك نفسك أسى وحسرة على غيهم .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم:٨ـ٩] .

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام:٣٥، ٣٦] (١) .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٧، ١٠٨] .

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء:١ـ٤] (٢) .

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس:٧٦] .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم:٢٩، ٣٠] .

﴿ طٰهٰ ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ [طه:١ـ٤] (٣) .

---

(١) وإن كان شق عليك يا محمد إعراضهم عن رسالتك فإن أمكنك أن تغوص في جوف الأرض أو تصعد إلى السماء بمعجزة فافعل ولكن لا فائدة من وراء ذلك فهم من الجاهلين .

(٢) باخع نفسك : قاتلها همًا وحزنًا .

(٣) وانظر أيضًا : الأنعام (٥٢ـ ٥٤) ، طه (١٣١، ١٣٢) ، الروم (٣٤) ، الفتح (٢٥) ، ق (٢٩ـ٤٠) ، النجم (٢٩، ٣٠) ، الكهف (٨ـ ١٢) ، المعارج (٥ـ ٧) .

٣ـ آيات التبشير

وبالقرآن آيات كثيرة يبشر الله بها رسوله الكريم في مناسبات متعددة تبشيرًا يعينه على أداء الرسالة ويقوي عضده فمن ذلك قوله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣] .

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

[النساء:٨٠] .

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنفال:٦٢] .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٧، ٨٨] (١) .

لما حيل بين الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه وبين أداء العمرة أرسل عليه الصلاة والسلام سيدنا عثمان بن عفان ﷺ ليفاوض كفار قريش ، ولما تأخرت عودته شاع بين المسلمين أنه قُتل ، فبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان على القتال والموت ، وفي رواية أخرى على الصبر ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:١٠] .

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح:١٨ـ٢١] (٢) .

---

(١) المثاني : سورة الفاتحة وآياتها سبع .

(٢) فتحًا قريبًا : فتح خيبر وقيل : فتح مكة ، مغانم كثيرة : مغانم المسلمين في صلح الحديبية ، وأخرى لم تقدروا عليها : فتوحات الإسلام الكثيرة المختلفة التي تلت ذلك أو انتشار الإسلام في العالم وإعلاء كلمة الدين .

ولما عقد صلح الحديبية مع كفار قريش على أن يعود الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه في العام المقبل لأداء العمرة نزلت الآيات الكريمة : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٧، ٢٨] (١) .

ويبشر الله نبيه الكريم وصحبه بأن ما تم بالحديبية هو فتح مبين :

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:١-٣] (٢) .

ولما تأخر الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام فترة طويلة جزع جزعًا شديدًا فأنزل الله تعالى : ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:١-٨] (٣) .

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:١-٨] (٤) .

ولما توفي أبناء الرسول عليه الصلاة والسلام شمتت قريش فيه وكانوا يلقبونه بالأبتر أي الذي لا ولد له فنزلت السورة الكريمة :

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:١-٢] (٥) .

---

(١) **الرؤيا** : رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام أنه دخل مكة ، **محلقين ومقصرين** : حلق الشعر وتقصيره من مناسك الحج .

(٢) فتح خيبر الذي تلا صح الحديبية .

(٣) **سجى** : شمل ظلامه الأرض ، **قلى** : أبغضك ، **فهدى** : هدى بالرسالة الإسلامية ، **أغنى** : أغناه الله بالقناعة .

(٤) **نشرح لك صدرك** : بالإسلام ، **وزرك** : الحمل الثقيل حمل الرسالة وتبديد الظلام والجهل ، **أنقض** : أثقل ، رفعنا لك **ذكرك** : بالرسالة ، **فرغت** : فرغت من تبليغ الرسالة ، **فانصب** : ثابر على العبادة .

(٥) **الكوثر** : الخير الكثير «الرسالة ، العلم ، الإيمان ، الخلق الفاضل ، وما إلى ذلك من الخيرات الروحية» ، **النحر** : التضحية في سبيل الله ، **شانئك** : مبغضك ، **الأبتر** : الذي لا عقب له ولا أثر له من ذكر حسن .

٤ ـ خلقه عليه الصلاة والسلام

كريم صادق أمين رءوف رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، يدعو إلى الله على بصيرة ، وهو أذُن خير للمسلمين وأسوة حسنة وعلى خلق عظيم أول المسلمين وإمامهم وسيد المرسلين وخاتم النبيين عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٨، ١٢٩] (١) .

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] (٢) .

وكان جماعة من منافقي المدينة يؤذون الرسول عليه الصلاة والسلام ويقولون عنه ما لا ينبغي ، فنهاهم بعضُهم أي بعض المنافقين الآخرين عن إيذاء النبي عن ذلك ، فقالوا : إن محمدًا أذن سامعة نقول فيها ما نشاء ثم نأته فيصدقنا ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٦١] (٣) .

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:١ـ٤] .

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١ـ٤] (٤) .

---

(١) عنتم : شديد على نفسه ما تلاقونه من مشقة ، تولوا : أعرضوا عن الرسالة .

(٢) أسوة : قدوة ، واقرأ أيضًا : النساء (٧٩، ٨٠) ، آل عمران (١٦) ، الكهف (٦) .

(٣) أذن : يصدق كل ما يقال له .

(٤) غير ممنون : غير مقطوع .

وتأمل هذا الوصف الرائع لرسول الله عليه الصلاة والسلام وصحبه ومن نهج نهجهم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٢٩] (١) .

وجاء في الحديث الشريف وفي الأثر عن الرواة الثقات :

«لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي ، الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب» (٢) .

«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟!» ، قال : **«فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»** (٣) .

ولما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه : اركب هذا الوادي واسمع من قوله ، فرجع إليه فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق (٤) .

وبينما كان النبي عليه الصلاة والسلام جالسًا في المسجد ، دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمد ؟ فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكئ ، فقال الرجل : ابن عبد المطلب ؟

فقال له النبي ﷺ : **«قد أجبتك»** .

فقال : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد عليَّ في نفسك .

فقال : **«سل عما بدا لك»** ، فقال : بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك للناس كلهم ؟ فقال : **«اللهم نعم»** ، فقال : أنشدك بالله : آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس كلهم؟ فقال : **«اللهم نعم»** ، فقال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تصلي

(١) سيماهم : علامتهم ، **الشطأ** : هو النبات الجديد الذي يخرج من ساق الشجرة ، آزره : قواه .

(٢) البخاري ومسلم ومالك عن جبير بن مطعم ، **على قدمي** : على أثري ، **العاقب** : ليس بعدي أحد من الأنبياء .

(٣) البخري ومسلم عن أبي هريرة ، **اللبنة** : الطوبة .

(٤) البخري ومسلم عن أبي ذر .

الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ فقال : «**اللهم نعم**» ، فقال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : «**اللهم نعم**» ، قال أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقراءنا ؟ قال : «**اللهم نعم**» ، قال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة [١] .

ويصف سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول :

جمع الله السيرة الفاضلة ، والسياسة العامة ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحاري ، وفي فقر وفي رعاية الغنم ، لا أب له ولا أم فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة ، وأخبار الأولين والآخرين ، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة ، والغبطة والخلاص في الدنيا ، ولزوم الواجب وترك الفضول .

دخل سعد بن هشام على السيدة عائشة فسألها عن أخلاق النبي ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن [٢] .

كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة [٣] .

---

(١) البخاري عن أنس .

(٢) مسلم وأحمد عن عائشة .

(٣) البخاري ومسلم عن ابن عباس .

٥ ـ هيئته عليه الصلاة والسلام

وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة من قمر ، وكنا نعرف ذلك منه [١] ، كان أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير [٢] ، كان ربعة من القوم ، أزهر اللون ، ليس بأبيض أمهق ولا آدم ، ليس بِجَعْدٍ قَطط ، ولا سبط رجل ، أنزل عليه وهو ابن أربعين ، مكث بمكة عشر سنين ينزل عليه ، وبالمدينة عشر سنين فتوفاه الله وليس في رأسه ولحيته شعرة بيضاء [٣] .

كان النبي عليه الصلاة والسلام مربوعًا بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنه ، رأيته في حلة حمراء لم أر شيئًا قط أحسن منه [٤] .

٦ ـ كلامه عليه الصلاة والسلام

كان أوجز الناس كلامًا يتكلم بجوامع الكلم ، لا فضول ولا تقصير بين كلامه ولو توقف يحفظه سامعه ويعيه [٥] .

ولو عده العاد لأحصاه [٦] .

وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة [٧] .

ولا يقول المنكر ، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق [٨] ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل [٩] .

---

(١) البخري ومسلم عن كعب بن مالك .

(٢) البخري ومسلم عن البراء .

(٣) مسلم عن براء ، **ربعة** : لا بالطويل ولا بالقصير ، **الأبيض الأمهق** : هو الكريه البياض كلون الجص ، يريد أنه كان نير البياض ، **آدم** : السمرة الشديدة ، **جعد قطط** : تقبض الشعر ، **السبط الرجل** : الشعر المسترسل .

(٤) البراء عن مسلم .

(٥) الترمذي في الشمائل عن هند بن أبي هالة .

(٦) الخمسة إلا النسائي عن عائشة .

(٧) الترمذي في الشمائل عن هند بن أبي هالة .

(٨) أبو داود عن عبد الله .

(٩) الترمذي في الشمائل عن علي بن أبي طالب .

ودخل رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا : السام عليكم ، قالت عائشة ﷺ : ففهمتها ، فقلت : وعليكم السام واللعنة .

قال رسول الله ﷺ : «**مهلًا يا عائشة ، عليك بالرفق في الأمر كله**» ، وفي رواية أخرى أضاف قوله : «**إياك والعنف والفحش**» ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «**قد قلت : وعليكم**» (١) .

لم يكن النبي سبابًا ولا فحاشًا ولا لعانًا .

كان يقول لأحدنا عند المعتبة : «**ما له ؟ ترب جبينه**» (٢) .

قال أنس : خدمت النبي عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فما قال لي : «**أف**» ، وما قال لشيء صنعته ؟ ولا لشيء تركته : «**لم تركته**» (٣) .

وكان عليه الصلاة والسلام أشد حياء من العذراء في خدرها إذا كره شيئًا عرف في وجهه (٤) .

ولو شاء النبي عليه الصلاة والسلام الغنى لأعطاه الله الغنى والثراء ، ولكنه يفضل عيش الكفاف والفاقة ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله (٥) ، لا يُسأل عن شيئًا إلا أعطاه (٦) .

ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه ، حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء (٧) .

جاءت امرأة للنبي عليه الصلاة والسلام ببردة فقالت : يا رسول الله : أكسوك هذه ؟ فأخذها النبي عليه الصلاة والسلام محتاجًا إليها ، فلبسها فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذه فاكسنيها ، فقال عليه الصلاة

---

(١) البخاري ومسلم عن عائشة ، **السام** : الموت .

(٢) البخاري عن أنس ، **ترب جبينه** : خر لوجهه فأصاب التراب .

(٣) البخاري ومسلم عن أنس .

(٤) البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري .

(٥) البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ، **العذراء** : البكر .

(٦) الطيالسي والدارمي عن سهل بن سعد .

(٧) الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس ، ويدل عليه حديث ابن عباس أنه توفي ودرعه مرهونة في طعام أخذه لأهله .

والسلام : «نعم» ، وأعطاه إياها ، فلما قام ﷺ لام أصحاب النبي الرجل وقالوا له : ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه ، قال الرجل : رجوت بركتها حين لبسها لعلي أُكَفَّنُ بها [١] .

وقالت السيدة عائشة ﵂ تحدث عروة :

كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في بيت رسول الله ﷺ نارًا ، فقلت : يا خالة ، وما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه كان لرسول الله جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانها فيسقينا [٢] .

وكانت السيدة عائشة ﵂ تقول : «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا» [٣] .

وكان عليه الصلاة والسلام يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع [٤] .

ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ، وما عاب طعامًا قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه [٥] .

وكان عليه الصلاة والسلام أنجد الناس وأشجعهم ، فقد جاء في الأثر عن سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ :

«لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان أشد الناس يومئذٍ بأسًا» .

وقال أيضًا : وكنا إذا احمر البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه [٦] .

وكان عليه الصلاة والسلام قليل الحديث ، فإذا أمر الناس بالقتال تَشَمَّرَ فكان أشد من الناس بأسًا [٧] .

---

(١) البخاري والنسائي عن سهل بن سعد .

(٢) البخاري ومسلم عن عائشة ، المنائح : المواشي التي تحلب اللبن .

(٣) البخاري ومسلم عن عائشة .

(٤) البخاري ومسلم عن جابر .

(٥) الخمسة إلا النسائي عن أبي هريرة .

(٦) أحمد والنسائي والبيهقي في الدلائل عن علي بن أبي طالب ، احمر : اشتد القتال .

(٧) أبو الشيخ عن سعد بن عياض .

وكان عليه الصلاة والسلام مثال التواضع ، فقد جاء في الأثر :

«كان يسترد ف» [١] ، وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخدم في مهنة أهله [٢] .

وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم [٣] ، ويجالس الفقراء [٤] ، ويؤاكل المساكين [٥] .

وأتى ﷺ برجل ، فأرعد من هيبته ، فقال له : «**هَوِّن عليه فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**» [٦] .

وكان إذا جلس مع الناس : إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم ، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم : رفقًا وتواضعًا لهم [٧] .

وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانًا ، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون ، فيبتسم هو إذا ضحكوا [٨] .

وكان عليه الصلاة والسلام أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع المقدرة فقد جاء في الأثر :

وكان رسول الله ﷺ في حرب ، فرأى «المقاتلون لرسول الله» المسلمين في غمرة ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : «**الله**» ، فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال : «**من يمنعك مني ؟**» ، فقال : كن خير آخذ ، قال : «**قل : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**» .

فقال : لا ، غير أني لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك .

فخلى النبي عليه الصلاة والسلام سبيله .

---

(١) أبو الشيخ عن عمران بن حصين والبخاري ومسلم عن أسامة ، **يسترد ف** : يحمل شخصًا معه على دابته .

(٢) أحمد عن عائشة ، **يخدم في مهنة أهله** : يخدم مع أهله في أعمال المنزل .

(٣) البخاري من حديث أنس .

(٤) أبو داود عن أبي سعيد .

(٥) البخاري عن أبي هريرة .

(٦) الحاكم في المستدرك عن جرير ، **أرعد** : خاف ، **القديد** : اللحم المجفف .

(٧) الطبراني بإسناد حسن ، **أخذ معهم في الحديث** : شاطرهم الحديث .

(٨) مسلم عن زيد بن ثابت .

فجاء الرجل أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس [١] .

«أتت يهودية النبي عليه الصلاة والسلام بشاة مسمومة ليأكل منها ، فجيء بها إلى النبي ﷺ فسألها عن ذلك فقالت : أردت أن أقتلك ، فقال : «**ما كان سلكك على ذلك ؟**» ، قالوا : أفلا تقتلها ؟ فقال : «**لا**» [٢] .

وكان عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة [٣] ، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين [٤] .

وكان أبعد الناس غضبًا ، وأسرعهم رضى ، فالرسول خير الناس [٥] ، يغضب لربه ، ولا يغضب لنفسه [٦] ، لا يهوله شيء من أمور الدنيا [٧] ، ينفذ الحق ولو عاد عليه أو على أصحابه بالضرر ، أدركه وهو في إحدى غزواته رجل قد كان يذكر عنه له جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب الرسول حين رأوه وهم في قلة ، قال الرجل الرجال للنبي عليه الصلاة والسلام : جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له : «**أتؤمن بالله ورسوله؟**» ، قال الرجل : لا ، قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «**فارجع فلن أستعين بمُشرك**» [٨] .

وكان عليه الصلاة والسلام يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم [٩] .

يصل ذوي الرحم من غير أن يؤثرهم على من هم أفضل منهم [١٠] ، لا يجفو على أحد [١١] .

يقبل معذرة المعتذر إليه [١٢] .

---

(١) البخاري ومسلم عن أنس ، في غمرة : في غفلة .
(٢) البخاري ومسلم عن أبي هريرة .
(٣) البخاري ومسلم عن أبي هريرة .
(٤) النسائي والحاكم عن عبد الله بن أبي أوفى .
(٥) الترمذي عن أبي سعيد الخدري .
(٦) الترمذي في الشمائل عن هند بن أبي هالة .
(٧) أحمد بمعناه عن عائشة وفيه ابن لهيعة .
(٨) الستة إلا البخاري عن عائشة ، **أصيب معك** : أشترك معك في الغنائم .
(٩) الترمذي في الشمائل عن علي بن أبي طالب .
(١٠) الحاكم من حديث ابن عباس .
(١١) الترمذي في الشمائل عن أنس .
(١٢) متفق عليه من حديث كعب بن مالك .

يمزح ولا يقول إلا حقًا [١] .

يضحك من غير قهقهة [٢] .

لا يمضي عليه وقت من غير عمل لله تعالىٰ ، أو فيما لا بد له من صلاح نفسه [٣] ، وترفع الأصوات عليه فيصبر [٤] .

لا يحتقر مسكينًا لفقره وزِمانته ، ولا يهاب ملكًا لملكه ، ويدعو هذا وهذا إلىٰ الله دعاء سويًا [٥] .

قيل للنبي عليه الصلاة والسلام وهو في القتال : لو لعنتهم يا رسول الله ، قال : **«إنما بعثت رحمة لا لعانًا»** [٦] .

وكان إذا سئل أن يدعو علىٰ مسلم أو كافر ، عدل عن الدعاء عليه إلىٰ الدعاء له [٧] .

وما خُيِّر النبي عليه الصلاة والسلام بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها [٨] .

وكان عليه الصلاة والسلام إذا لقي أحَدًا من أصحابه بدأه بالمصافحة [٩] .

وكان يكرم من يدخل عليه ، حتىٰ ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة أو رضاع يجلس عليه [١٠] .

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته ، فإن أبىٰ أن يقبلها عزم عليه حتىٰ يفعل [١١] .

---

(١) أحمد عن أبي هريرة .
(٢) البخاري ومسلم بمعناه عن حديث عائشة .
(٣) الترمذي في الشمائل بمعناه عن حديث علي بن أبي طالب .
(٤) البخاري بمعناه عن عبد الله بن الزبير .
(٥) مسلم عن أنس .
(٦) مسلم عن أبي هريرة .
(٧) البخاري ومسلم بمعناه .
(٨) مسلم عن عائشة .
(٩) أبو داود عن أبي ذر .
(١٠) الحاكم بمعناه عن أنس .
(١١) أحمد بمعناه عن أبي عمرو .

وكان عليه الصلاة والسلام أرأف الناس بالناس، خير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله [١].

وكان إذا قام من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك [٢].

عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

(١) العراقي في الجزء الأول من فوائد أبي الدحداح عن علي بن أبي طالب.
(٢) للنسائي في عمل اليوم والليلة عن رافع بن خديج.